بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الدراسات النظرية فى مجال البلاغة والنقد لا يصطنعها الهوى أو الرغبة فى التنظير وإنما هى مرحلة تلى مراحل لابد أن تسبقها والوصول – بشكل طبعى – إلى مرحلة التنظير يعنى – بلا شك – الوصول إلى كشف الروح العام للشعب ، والرؤية الشمولية لجوهر ذاته وإدراك حقيقته . ومن هنا يظل الناظر فى تاريخ التراث النقدى والبلاغى – عند العرب – مشغوفا بتتبع الومضات المرشدة إلى هذا الهدف وإن قلت أو تباعدت . ولكن عندما يسفر التتبع عن تبدد هذه الومضات ، ويقف الدارس على أن الهوى قد عجل بمثل هذه المحاولات القليلة ، قبل تتميم مراحل لابد منها يصبح من الواجب على الدارس أن يلزم نفسه ، وأن يدعو الآخرين أن تستكمل المراحل المفقودة فى سبيل الوصول إلى مرحلة التنظير النقدى والبلاغى لأمته من طريق طبعى وقومى ، لما يترتب على هذا من تبين لحدود الشخصية القومية لهذه الأمة .

لقد بات معروفا ومشهورا أن التراث النقدى عند العرب ، التحليلى منه إنما يمثل نظرات فردية هى قرينة نماذج أدبية مقتطعة من سياقها العام ، والنظرى منه مفقود إلا قليلا ، وهذا القليل – فى تراثنا النقدى والبلاغى – إما أن يكون قد أتى مشوها بسبب الهوى المحموم فى احتذاء النماذج الغريبة الجديدة الوافدة مع نقل

علوم الأوائل ، وإما أن يكون قد جاء حذرا متوجسا من هذا الجديد الغريب ، فنكص على عقبيه ، وغلبه ذوقه الأخلاقى المحافظ ، وإما أن يكون قد أصاب الهدف وعرف الطريق ، ولكن مجيئه متأخرا أضر به إذ لم يتناصر له الوعى الجمعى الذى أنهكه الضعف والفرقة السياسية .

والمتأمل فى المحاولات التنظيرية السابقة يجد أن الناجح منها ، إنما أسهم فى نجاحه مجيئه بعد استقراء عام للشعر العربى على النحو الذى صنعه حازم القرطاجنى فى منهاج البلغاء ، وهو النحو الذى أغفله قدامة بن جعفر فى نقد الشعر بسبب انبهاره بالمنطق الأرسطى ، وأغفله أيضا ابن طباطبا العلوى فى عيار الشعر بسبب الرغبة والتوجس – فى آن واحد – فى إقباله على النهج الفلسفى . ثم إن المتأمل فى تلك المحاولات التنظيرية يدرك أن محاولة حازم القرطاجنى التى قاربت النجاح ، إنما قلت قيمتها لأنها كانت محاولة فردية لم يناصرها العقل الجمعى للبلاغيين والنقاد العرب .

إننا فى ضوء ما سبق طرحه نجد أنفسنا مطالبين بالعودة إلى ما نعتقد أنه البداية الصحيحة الموصلة إلى هذا التنظير الكاشف عن روح الشخصية العربية ، والناشئ من سلالتها الفكرية . وإن هذه البداية تتمثل – فيما نرى – فى حلقات من الدرس التحليلى تختط لها طريقا من طرق الكشف عن كينونة النفس العربية ، وذلك من خلال الكشف عن أنماط تذوقها فى الإبداع والتلقى ، وهو الأمر الذى يمكن تحقيقه – فيما نرى من خلال جزئية يتحدد فيها عنصر الخيار الإبداعى المرتبط

يقينا باستجابة الخيار التذوقى للمتلقى ، ونعنى بها قضية توحد المضمون ثم تبدل الأنساق المؤدية إليه فى عمومه والمختص كل منها بخاصة يستوجبها المقام والمقصد الدقيق داخل هذا المضمون العام .

إن هذه الجزئية التى نريدها ونتطلبها يندرج تحتها أكثر من قضية ، تمثل فى مجملها جماع الاتجاهات الفلسفية والفكرية ، بل والموقف العام للشخصية العربية ، ومن هذه القضايا قضية التوحيد ، التى يؤثر بحثنا هذا أن يجعلها الحلقة المبدوء بها سلسلة هذه القضايا .

وإنما آثرنا البدء بقضية التوحيد باعتبارها مبدأ الوجود ، ومحور الفكر الإنسانى عموما ، ومحك اختبار الموقف المحورى للشخصية العربية من كل ما سوف يليها من القضايا .

إن قضية المضمون العام ذى الأنساق المتبدلة – فى القرآن خاصة – لفتت أنظار الدارسين قديما وحديثا ، وإن كانوا لم يصلوا – فى ذلك – إلى ما نبتغيه ونتطلبه فى بحثنا هذا ، ويمكننا أن نجمل تصنيفنا ومآخذنا على هؤلاء الدارسين فى أمرين :

الأول - أن قسما من هذه الدراسات قد عكف على تتبع اختلاف النسق بحسب ملاحظته فى آية آية دون ربط تلك الآيات بما تندرج تحته من مضامين عامة .وفى هذا القسم يمكننا الإشارة إلى كتاب الرازى المعروف باسم (درة التنزيل) وهو فضلا عن تتبعه للآيات متفرقة مفردة منزوعة من إطارها العام ، فإنه – بعد

ذلك – وكما يذكر محقق كتاب البرهان للكرمانى " مختصر غير واف بالغرض " [عبد القادر أحمد عطا / مقدمة تحقيق كتاب البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى / ص ١٤] .

ويمكننا الإشارة فى هذا القسم أيضا إلى كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى) وعلى الرغم من أنه يعرض خطته فيقول : " إنى مذ خصنى الله بإكرامه وعنايته ، وشرفنى بإقراء كلامه ودرايته ، تدعونى دواع قوية يبعثها نظر وروية فى الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة ، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة ؛ تطلبا لعلامات ترفع لبس إشكالها ، وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها [الخطيب الإسكافى / درة التنزيل وغرة التأويل / ص ٧-٨] .

فإن وقوفه أمام تلك الآيات ، وإن كان من مميزاته – فى أحيان قليلة – أنه تناول الآيات المكررة فى إطار السياق الذى وردت فيه ، فإنه – فى أحيان أخرى – قد ينشغل بتعليلات نحوية بعيدة عن خطة كتابه ، وقد يقف عند وجوه وعلل غير بلاغية كما فى وقوفه أمام قصة موسى فى سورة البقرة وما فيها من تغاير الأنساق وتفسيره ذلك بأن القصد إنما هو إلى حكاية المعنى ولذلك يجوز استخدام الألفاظ بأى طريق .

ثم هو فى أحيان أخرى لا يعلل للتكرار ، وإنما يعلل للعدد الذى تكررت فيه الآيات كما فى آية (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فى (سورة الرحمن الآية ١٢).

والإسكافي فى نهاية الأمر يعرض للتكرار بحسب السور، وليس بحسب الموضوعات التى وردت فيها تلك الآيات .

ومن هذا القسم الأول أيضا يأتى كتاب الكرمانى (البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان) وهو المنشور تحت عنوان (أسرار التكرار فى القرآن) وهو يشير فى خطة كتابه إلى عنايته بالآيات المفردات فيقول : " هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التى تكررت فى القرآن وألفاظها متفقة ولكن وقع فى بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك [الكرمانى / أسرار التكرار فى القرآن ص ١٧] وصحيح أنه قد ينظر إلى الآيات من خلال موقع كل آية منها فى السورة ، ولكنه لا يضيف - إلى ذلك - المضامين العامة للآيات التى يعالجها ، كما أنه يوجه عنايته للفظة واحدة اختلفت زيادة أو نقصا فى الآية ، وليس لنسق العبارة فى الآية بكاملها ، وكذلك فإن الكرمانى فى تعليله لاختلاف الألفاظ يميل إلى الاختصار، ويعول على تعليلات غير مستندة إلى روح الصياغة ، وإنما يعتمد على مراعاة التناسب الصوتى أو الصيغ الصرفية وهو أمر قد يصف دون أن يعلل ، فضلا عن نقوله عن القدماء مكتفيا بها دون تدخل منه فى بعض المواضع .

وفى هذا القسم أيضا يمثل كتاب (ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم) للدكتور عبد المنعم السيد حسن دراسة معاصرة فقد نشر فى سنة ١٩٨٠ وهو يقف أمام بعض وليس كل – الآيات المتشابهة والتى كان السابقون قد أشاروا إليها ،

وعلى الرغم من أنه يقدم تعليلات لوجوه الخلاف فى النسق ، فإنه لا يصنع ذلك فى إطار مضمون عام يشمل تلك الآيات التى يعرض لها ، ثم هو لا يكمل تتبعه للآيات المتشابهة كلها ، بل يقف عند بعضها فقط .

وأما الأمر الآخر من تصنيفنا ومآخذنا على الدراسات السابقة فهو أن بعض هذه الدراسات قد سعى جاهدا فى سبيل دراسة اختلاف الأنساق من خلال مضامين عامة وإن كانت – فيما نرى – قد ظلت مجرد أمل راود أصحابه ، ولم يصلوا فى سبيل تحقيقه إلى ما وعدوا به ، ولم ينتهوا فيه إلى ما كنا نرجوه لهم .

فالأستاذ/ سيد قطب يلاحظ أن الباحثين فى البلاغة وفى إعجاز القرآن كانوا مرشحين بعد أن " خلى بينهم وبين البحث فى صميم العمل الفنى فى القرآن أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه المفسرون ، ولكنهم شغلوا أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى أيهما تكمن فيه البلاغة " [سيد قطب / التصوير الفنى فى القرآن / ص ٢٩] .

بل إن الرجل يلمس بدقة منهجنا الذى ندعو إليه هنا عندما يقول : "وبوقوف الباحثين فى بلاغة القرآن عند خصائص النصوص المفردة ، وعدم تجاوزها إلى الخصائص العامة ، وصلوا إلى المرحلة الثانية من مراحل النظر فى الآثار الفنية وهى مرحلة الإدراك لمواضع الجمال المتفرقة ، وتعليل كل موضع منها تعليلا منفردا ذلك مع ما قدمنا من أن هذا الإدراك كان بدائيا ناقصا .

أما المرحلة الثالثة مرحلة إدراك الخصائص العامة – فلم يصلوا إليها أبدا لا فى الأدب ولا فى القرآن " . [سيد قطب / التصوير الفنى فى القرآن / ص ٣٤] .

ولكن سيد قطب على الرغم من وعيه بهذه الحقيقة ، وعلى الرغم من تطلبه لهذا المنهج الذى تدرس فيه بلاغة القرآن بشكل شمولى ومن خلال الوعى بالخصائص العامة فإنه – هو نفسه – عندما يتحدث عن التناسق الفنى فى كتابه التصوير الفنى ، نجده يشير إلى تناسق السياق من خلال الوقوف أمام المعانى المتواردة ، والتى تشكل لوحة فنية متوافقة المعانى ، وقد يعلل اختيار الألفاظ ذات الدلالة المناسبة للجو العام ولكنه – فى كل ذلك – يقف عند اللفظة المفردة ولا يتعداها إلى التركيب أو النسق ، بل يعرض عن هذا بدعوى أنه من البلاغة القديمة ، مع أن البلاغة القديمة لم تصنع هذا الصنيع أللهم إلا عند الزمخشرى فى مواضع من الكشاف . وأما غيره من المصادر فإنها – إن حددت طرق الإسناد – فهى لم تصل من خلال ذلك إلى بيان دلالتها الفنية والبلاغية العامة .

ومما يؤخذ بعد ذلك على سيد قطب أنه فى علاجه للتناسق الفنى فى القرآن لم يكن لديه معيار محدد فى اختيار النصوص ، وإنما تخير ما يعن له دون تخطيط ملزم ، ثم إن تحليلاته – من بعد ذلك – لا تقوم على استنباط الجمال والقيم البلاغية فى النص، بقدر ما تعتمد على إثارة انفعال القارئ بكلام الناقد نفسه أكثر من إثارته بما فى النص من صياغة .

ومن الدراسات – فى هذا القسم الآخر أيضا – دراسة الدكتورة عائشة بنت الشاطئ عن (التفسير البيانى للقرآن الكريم) وهى على الرغم من أنها تنتهج – فيما تقول منهج أستاذها الشيخ أمين الخولى فى التفسير الأدبى ، والأصل فيه – كما تذكر – " هو التناول الموضوعى الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما فى القرآن عنه ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة " .

[بنت الشاطئ / التفسير البيانى للقرآن الكريم / ١ / ١٨] .

أقول على الرغم من ذلك ، فهى قد عالجت بحثها فى تفسير القرآن باعتباره سورا لا موضوعات ، وليس يشفع لها فى ذلك ما تراه من أن قصار السور فى الجزء الأول من كتابها حديث عن اليوم الآخر ؛ لأنها تحدثت عن كل سورة على حدة ولم تتحدث عن خصائص أو مظاهر اليوم الآخر ، ثم إن ما قصدت إليه من تتبع التفسير من خلال موضوعات، إنما جاء من خلال وقوفها أمام المعنى الجزئى فى السورة، ثم حشد مرات وروده فى القرآن ومعانيه فيها وهى – على الرغم من سعيها إلى منهج جديد فى التفسير ينتقد كل التفاسير السابقة – فإنها لم تنج من استهلاك الجهد والوقت فى عرض كثير من مواقف التفاسير القديمة ، ثم إعلان الاستغناء عنها . وهى – فى نهاية الأمر – عندما اهتدت إلى عدد من المفاهيم الجديدة ، فإن ذلك لم يكن من خلال الوقوف عند الصياغة ودور التراكيب فى فهم

المعنى ، وإنما استنبطت ذلك من خلال استعمالات الكلمة فى القرآن أو من خلال مواقف المفسرين وترجيح بعضها على بعض . ومن ثم فإنه يصبح من غير المفهوم ما تقصده بالتفسير البيانى .

إن الدراسات التى عرضنا لها – فيما مضى – قد حاد معظمها عن خطتنا ومقصودنا ؛ فعدد منها خاصة المحاولات التراثية قد عكفت على التتبع الفردى للآيات دون أن تنتبه إلى الأطر العامة التى يندرج تحتها كل قسم من هذه النصوص وعدد آخر من تلك الدراسات – خاصة الحديثة – كدراسة سيد قطب وبنت الشاطئ قد تنبه للفكرة ودعا إليها ، ولكن يبدو أن ذلك كان بمفهوم مغاير لما نعنيه ، إذ لم تشفع هذه الدعوات بنموذج تطبيقى على النحو الذى نرغب فى صنعه هنا ، ولم تعضد بما يساندها من منهج يجنبها التتبع الفردى العشوائى كما عند سيد قطب ، أو التتبع حسب السور كما عند بنت الشاطئ . ثم إن تلك الدراسات جميعها – بعد ذلك – لم تسع إلى ما قصدنا إليه من النظر إلى تلك المحاولة على أنها مرحلة تستهدف ما وراءها وهو ما يتمثل فى استخلاص أنماط الإبداع والتذوق العربى للوقوف على الروح العام للشخصية العربية والتنظير لرؤيتها العامة

إن دراستنا هذه تحاول أن تستكمل ما فات السابقين من خلال منهج ورؤية يتمثلان فى النظر إلى قضية التوحيد على أنها حلقة لابد أن تليها حلقات أخرى تقف على القضايا المختلفة التى دارت حولها النصوص العربية سواء فى القرآن أو فى الأدب ثم إن هذه الحلقات – جميعها – لابد أن يراعى فيها أنها

تندرج تحت مشروع عام هو درس الدواعى البلاغية والقيم الفنية المترتبة على تعدد الأنساق الصياغية الداخلة تحت مضمون عام واحد . إننا نقدر – إن شاء الله – أن اكتمال حلقات هذا المشروع – على أيدى فريق من الدارسين – سوف يقفنا فى النهاية على تبين خصائص عامة ثابتة للنهج العربى فى اختيار أنماط الإبداع الفنى ، وفى الحرص على موافقة أنماط التذوق الفنى أيضا .

ومن ثم تكون هذه الخصائص التى نقدر إمكان الوقوف عليها سبيلا إلى صياغة نظرية عربية فى البلاغة والنقد تشتق من طبيعة الحس العربى وتلائمه .

إننا فى سبيل هذا الهدف ننظر إلى نصوص الإبداع العربى قرآنا وأدبا على أنها المصدر الرئيسى لتلك البحوث متمثلا فى القرآن الكريم ثم دواوين الشعر العربى وكذلك مجاميع النثر العربى ، القديم من ذلك فى مرحلة ، والحديث منه فى مرحلة أخرى .

ثم يلى هذا المصدر الأول مصدر آخر يتمثل فى المحاولات النقدية والبلاغية التى واكبت تلك النصوص متمثلة فى كتب التفسير بالنسبة لنصوص القرآن ، ومتمثلة فى مصادر النقد والبلاغة قديمها وحديثها بالنسبة لنصوص الأدب ، ذلك حتى إن كانت تلك المحاولات تقوم على التتبع الفردى ؛ لأنها تمثل شكلا من أشكال التذوق يدخل فى إطار خطتنا وإن كان غير ناضج وغير شمولى .

ويبقى بعد ذلك عبء كبير على الدارسين المشتركين فى هذا المشروع يتمثل فى اختيار القضايا ، وفى تحديد ما يتبعها من النصوص ، ثم الاتكاء على الحس

النقدى والذوق البلاغى فى الكشف عن أوجه اقتضاء الحال لكل نسق من الأنساق فى موضعه ؛ إذ أن ذوق الدارس - هنا - يكاد يقف على قدم المساواة مع نصوص الإبداع نفسها التى يمثلها القسم الأول من مصادرنا ، ومن هنا يكتسب اجتهاد الدارس أهميته ، ويستوجب ضرورة الحذر والاحتياط فى طرح القيم البلاغية التى يظن أنها دفعت إلى اختيار نسق دون نسق خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالنص القرآنى ، الذى كل ما يذكر حول معانيه ومقاصده مجرد اجتهاد لا يرقى إلى مراد الله جل وعلا .

إننا إذ نقدم هذا البحث إلى جمهور الدارسين فى ميدان البلاغة والنقد ، لا يفوتنا أن نستحث كافة المثقفين العرب – فى ميدان الدراسات الإنسانية عامة والفنون بكل أقسامها خاصة – إلى شحذ هممهم فيما يشبه أن يكون مشروعا قوميا كبيرا يبدأ من السعى إلى إدراك الأنماط العربية الكبرى فى التفكير ، وفى الإبداع ، وفى التلقى ، ويصل بعون الله وتوفيقه - إلى الوقوف على النظرية العربية فى الأدب أو الموسيقى أو التصوير أو غيره ، مستهدفا من وراء ذلك الكشف عن الروح العام الذى تكونت فى مناخه الشخصية العربية .

إننا إذ نشرع فى ذلك لا نعدو أن نكون مجرد آملين فى صحوة عربية حقيقية تعيدنا إلى مثل الصحوة العربية التى شهدها صدر الإسلام ومجرد راغبين فى تظاهرة جماعية توفر لمشروعنا مناصرة الوعى الجمعى الذى خذل حازما من

قبل ، ومجرد راجين من الله أن يلهمنا جميعا الصواب ، وأن يوثق عرى الأخوة فيما بيننا ، إنه – على ذلك إذا يشاء قدير ،

وإنه نعم المولى ، وإنه - فى كل هدف خير - نعم النصير .

الدكتور

صفوت عبد الله الخطيب

المنيا فى نهاية يوليو ١٩٩٣م

المدخل

السعى إلى تصنيف أبواب البلاغة العربية على هيئة ثنائيات متضادة [1]، لم يكن- فيما يبدو لى - مجرد ظاهرة عارضة ، انفرد بها الدرس البلاغى العربى وحده ، بقدر ما كان – ذلك الأمر – تعبيرا خفيا عن عقيدة ، يكمن وراءها التكوين العقلى للشخصية العربية ، ويمكننا ملاحظتها فى كثير من وجوه الطرح الفنى والفكرى العربى .

ففى الإبداع الشعرى ، حرص الشاعر على مقابلة الصدر مع العجز ، وعلى العناية بتفعيلة العروض كنظير مضاد لتفعيلة الضرب ، وحرص – أيضا – على أن يناسب بين مفتتح القصيدة القديمة بحديث الوجد والعاطفة ، وبين منقطعها بحديث الحكمة والعقل وفى الإبداع النثرى ظهرت الرسائل الديوانية فى مقابلة الرسائل الإخوانية ، وكذلك فن التوقيعات فى مواجهة الرسائل ، ثم نلحظ أيضا أن

١- تبدو هذه الثنائيات المتضادة فى أبواب البلاغة العربية مصطلحات وأفكارا . ومن ذلك – على سبيل التمثيل لا الحصر – انقسام أحوال المسند والمسند إليه بين أبواب الذكر والحذف ، التقديم والتأخير ، التعريف والتنكير ، ومن ذلك أيضا باب الفصل والوصل ، الإيجاز والإطناب ، ويلاحظ هنا أن الحديث عند البلاغين عن المساواة كقسيم ثالث للإيجاز والإطناب لم يكن يستحوز على عنايتهم التى تظهرها الأنماط المختلفة التى وقفوا عليها فى الإيجاز والإطناب . ومن هذه الثنائيات كذلك الحقيقة والمجاز ومنه أيضا تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح .

وتبدو هذه الثنائيات المتضادة فى الفكر البلاغى فى قيام التشبيه على طرفين أساسيين لا يستغنى عنهما معا وهما المشبه والمشبه به ، وأيضا فى الاستعارة المستعار منه والمستعار له وهما وإن كان لابد من حذف أحدهما فإنه لابد أيضا من تقدير وجوده والاجتهاد فى تصوره . ومنها بعد ذلك الحديث عن الفصاحة فى مقابلة البلاغة ومنها تقسيم أصناف البديع إلى بديع لفظى وبديع معنوى . وغنى عن الذكر أن أبواب المقابلة والمطابقة ثم السجع والجناس وغيرها كل ذلك يقوم على فكرة تجاور الطرفين أو تقابلهما

ميل فريق إلى العكوف على تكلف السجع ، لم يمنع فريقا آخر من الركون إلى الترسل .

وفى الظواهر اللغوية ، أبان الدرس عن الفصيح ، مميزا إياه عن الدخيل ، وأشار إلى الحوشى ليميزه عن المبتذل .

والدرس النحوى – أيضاً – اعتنى بالمنتظم المطرد الذى يخضع للقاعدة ، ولكنه لم يغفل العناية بالشاذ المتفرد الذى يستدل عليه بالشاهد .

وحتى فى علم التاريخ ، إنما ظهرت العناية عند العرب بالأنساب ؛ لتفرق بالمقابلة بين عنصر عربى قح ، وعنصر مدخول فى نسبه مطعون فى انتمائه .

وفى علم الحديث ، نجد العناية بالمتن ، فى مقابلة العناية بالرجال ، ونجد التصنيف يميز بين الصحيح والحسن ، وبين الضعيف .

وكذلك علم التفسير يبرز فيه اتجاه المنقول ، فيعترضه اتجاه المعقول . ولو ذهبنا نستقصى الوجوه المختلفة لهذه الفكرة ، لوجدناها تصدق ذلك وتقره ، أكثر من أن تنفيه أو تكذبه .

إنها إذن عقيدة التكوين العقلى عند العرب ، تلك العقيدة التى تميل إلى الكشف عن حقيقة الشئ ، واختبار جوهره ، بأبسط الطرق ، وأنسبها لطبيعة هذا العقل ، وهى الطريقة التى وقف عليها الشاعر فى قوله :" وبضدها تتبين الأشياء " . والبلاغة العربية فى استهدافها بلوغ قلب المخاطب – وهو جوهر ومكمن التأثير فيه

بحاجة المتكلم - لم تكن لتشذ عن منظومة هذا التكوين العقلانى العربى ، بل سكنت له ، واطمأنت إليه ، على المستويين التقنينى والإبداعى .

وإذا كان الدرس البلاغى – عند العرب – قد انتهى إلى ترجيح كفة القائلين بأن إعجاز القرآن الكريم إنما كان فى بلاغة نظمه ، فإن الفصول المتوالية لمبحثنا هذا سوف توقف على الاستدلال – بطريق تحليلى تطبيقى – على دقة هذا النظم القرآنى ، المظهر لتلك البلاغة التى لم تبلغ – فحسب – قلب المخاطب العربى اللسن بطبعه ، بل بهرته وأعجزته ، وأدت به إلى الإسلام أو التسليم [1] عن قناعة ، وذلك كله فى مضمون عام واحد من مضامين هذا القرآن ، وهو قضية التوحيد ، التى عالجها القرآن الكريم – وفق ما اقتضته عقيدة التكوين العقلى للشخصية العربية ، أعنى الافتتان بالثنائيات المتضادة سعيا إلى الحقيقة فى أبسط وأخلص صورها – أقول ، قضية التوحيد التى عالجها القرآن– وفق ذلك الإطار – فيما يمكن أن نسميه بجدلية النكران والثبوت مضمونا عاما واحدا ومن خلال أنساق متعددة ، يحاول البحث أن يثبت ، كيف ناسب كل منها موضعه الذى لم يكن ليصلح له غيره .

١- مثال لإسلام الذين أسلموا عمر بن الخطاب الذى سمع القرآن فأدرك إعجازه الربانى فآمن به .
ومثال لتسليم الذين سلموا الوليد بن المغيرة الذى أدرك أن القرآن ليس سحرا وليس شعرا بل وما هو من قول البشر ولكنه لم يعلن إسلامه .